العولمة والاستشراق: علاقة عفوية أم إستراتيجية مخبرية

تاريخ استلام المقال: 2016/10/01 تاريخ قبول المقال للنشر: 2016/12/08

أ.بحـــري محمد

جامعة الحاج لخضر باتنة- الجزائر

البريد الالكتروني:bahrimohamed65@yahoo.com

ملخص المقال:

تهدف ورقة البحث إلى تقديم قراءة متسلسلة ومتأنية عن أحد المفاهيم التي لا يخلو منها أي نقاش فكري أو سياسي، ولا تغيب عن أي نقاش استراتيجي، ألفها المشاهد، ولكن ليس له من مفهومها الحقيقي إلا النزر القليل، ولا أدنى فكرة عن القائمين على تفعيلها وخلفياتهم الفكرية والعقدية، وعلاقة هذا المفهوم ببعض التخصصات العلمية.

ألمحت الدراسة إلى كرونولوجيا تطور مفهوم " العولمة "، ثم الطرح الجديد للفكرة الذي استدعى الإشارة إلى بداية تكون الشرق - باعتباره المستهدف الأول- في الوعي الأوربي، بعدها كان التركيز على الطبعة الأخيرة لهذا المفهوم وعلاقته بالاستشراق- الذي خضع هو الآخر للتأميم .

Abstract:

This paper aims at presenting one of the most controversial concepts that feeds political and intellectual debates all over world.
The paper elaborates a chronology of the appearance of the idea of globalization and then deals
With the new approach that indicates that the orient is the target of the concept and finally ends with a focus on the relation between orientalists and globalization.

المقدمة:

شاهد القرن العشرين إستقبل كمًا هائلا من الأحداث في العقدين الأخيرين، حيث تكدَست لديه المتغيرات وتسارعت، سواء على مجاله الثقافي أو الاجتماعي أو السياسي والاقتصادي.

إن ما درسه عن بنية المجتمعات والأنظمة التي تحكمها، والتاريخ الذي يثبت ديناميتها تعدَاه واقعه في عالم شهادته، فمجمل ما اعتمده من مسلَمات وقوانين وقواعد عامَة لم تعد قادرة أو متوافقة لضبط حركية نشوء وتفاعل (المجتمع والنظام والتاريخ).

أن التَنوُع المجتمعي " ايجابية إنسانية " جُبل عليها الكائن البشري بحكم الحاجة، وأن أنظمتها ذاتية تتأسَس من خلال حركية المجتمع وتنشأ من تفاعلات مكوناته الثقافية والعقائدية والمجتمعية بصفة عامَة، أي أن المجتمع ولّاد لنظام حياته، صانع لنمط علاقاته من خلال مبادئه وقيمه، هذه المسلمات المجردة شكلت للذهنية الغربية " عقدة " أمام طموحها التوسعي، وأنانية " التَمركز"، ودافعية الاستعلاء على " الآخر"، لا من خلال سمو أنظمتها الثقافية والروحية والأخلاقية، ولكن لسبقها المادي والتكنولوجي.

وبعد أن كان مثلها الأعلى " المدينة الفاضلة " والتسامح والأخوة وما جرى مجرى هذه الشعارات، استرخى لديها الدافع لهذه المثل تحت وطأة المادية الجامحة التي اجتاحت كل مستويات الحياة الغربية، حتى طالت " المعرفة "؛ بعد أن كانت بناءة صانعة للقيم، مؤصلة للحقائق، داعمة لمشاريع الخير، أضحت معولا للهدم، مشككة في كل فضيلة نزولا عند رغبة المادية، وتناغما مع أهدافها المعلنة والخفية.

الغرب يطرح مشروعا معرفيا وثقافيا جديدا، ولكن وفق بوصلة مادية نفعية، وحتى يحضى هذا المشروع بالقبول، وجب القضاء على كل ما من شأنه أن يمثل كابحا وعائقا لدينامية المشروع من قيم ومبادئ " الآخر"، – وخاصة العربي الإسلامي– .

بهذا السلوك، الغرب يؤصل لحتمية " الصراع " من خلال مؤرخيه ومفكريه وخاصة بجهود بعض المستشرقين النافذين في دوائر المنظمات العالمية والحكومات الأوربية.

من هنا ترسبت **الاشكالية** حول حقيقة التغول الغربي على كل ما هو من خصوصيات الآخر، ومصادر استمداد معرفته بهذا الآخر وخاصة الشرق أوسطي، ودور المفكرين الغربيين المهتمين بالدراسات العربية والاسلامية في هذا الاستمداد، ومدى علمية ما يطرحه من مشاريع.

تستوجب محاولة الاجابة على هذه الاشكالية التعرف عل سيرورة فكرة العولمة ونماذجها عبر التاريخ ، وطرحها في مفهوم جديد، وعلاقة ذلك بالوعي الغربي وما وضعه من أطر ومفاهيم، وموقع الاستشراق منها، وما ترتكز عليه الفكرة " العولمة " من مبررات أثبتت البحوث منابعها المعرفية.

على هذه القاعدة، أثبت الاستشراق وجوده، بل تزعم من خلف الستار تأجيج حتمية الصراع، وقاد بعض مراحله — ولا زال — بما أتيح له من وسائل ومؤسسات، وما حضي به من دعم مالي وإعلامي وأكاديمي، وتبجيل في أروقة الهيئات والمنظمات العالمية.

كان الاستشراق أحد أهم تلك الوسائل التي عوضت التبشير والاستعمار، وأصبح المستشرق قطب الرحى في توجيه وتحديد وتأطير مجريات هذا الصراع خلفا للمبشر، أو المستكشف المستخفي تحت عباءة العلم والمعرفة، والكاهن والعسكري.

قدم الاستشراق لهذا الصراع ما يسعر لهيبه، ويبرر عنجهيته، ويقدس هدفيته، حتى أضحت المشاركة فيه من عزائم الأمور، بل دليلا على الانتماء للذوق الغربي، لا لشيء إلا لأنه صراع من أجل شعب الله المختار من (الطهوريين المسيحيين، والمتصهينين من اليهود)، حتى يتبوأ مكانته الإلهية المتمثلة في حكم العالم، وتخليصه من هرطقة المشرقيين، وتُتاح الفرصة – وبنفس السرعة التي تحكموا فيها في عالم الماديات- لنزول سيدنا عيسى " عليه السلام" مرة أخرى، بحيث يكون للمتنورين الجدد في أمريكا وأوربا شرف هذا التَعجيل والتَبشير بقدومه- عليه السلام- .

إذا نال الشرق شرف بزوغ الديانات السماوية، وحاز تاج النبوءات لحكمة يعلمها الله عز وجل، فإن للطهورين المتنورين القدرة على استعجال نزول عيسى- عليه السلام – من الغرب هذه المرة ولكن بوسائلهم الخاصة، وبتوقيت أهداف ومصلحة " شعب الله المختار"، حتى يتساوى الغرب مع الشرق في هذه القضية الحضارية التَاريخية.

1. الهيمنة على العالم (كرونولوجيا فكرة العولمة):

يمكن تلمس فكرة المجتمع البشري ذات الصفة أو المظاهر العالمية في الفكر الرواقي في القرن الثالث قبل الميلاد عبر زعماء هذه المدرسة الذين دعوا إلى مدينة عالمية يكون فيها جميع البشر متساوون[1] ولكن هذه الفكرة كانت عصية على التطبيق لأنها كانت مجرد ردة فعل لشرخ أصاب حيزا جغرافيا معينا في ظرف زمني محدد، أضف إلى ذلك أن النموذج الذي استثار أصحاب هذه الفكرة كان " نمطيا" بمعنى موحدا من حيث التوجه الروحي والسلوك الاجتماعي، ووحدة العرق واللسان ألا وهو المجتمع اليوناني، الذي مزقه اختلاف وتعدد بل وتعارض الأنظمة والقوانين التي توالت على تسيير شؤونه.

إن التاريخ العالمي مليء بالأحداث الجسام التي ذهب ضحيتها الكثير من الأبرياء، وذلك نتيجة للأحلام التوسعية لبعض زعماء العالم أو من يتصورون أنفسهم زعماء العالم، كنابليون الذي يعتبر من أوائل من حاولوا السيطرة على العالم في العصور الحديثة[2]

[1] **د/ خليل حسن**، النظام الدولي، المفاهيم والأسس،الثوابت والمتغيرات(بيروت، لبنان، منشورات الحلبي الحقوقية، ط 3، 2013) ص 08.

[2] **صدام مرير الجميلي**/ الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد (لبنان، دار المنهل اللبناني، ط1، 2009) ص 198

" إن النظام العالمي الجديد مصمم أمريكيا كي يعكس التجربة المحلية الأمريكية حيث تقف الطبيعة التعددية لكل من المجتمع الأمريكي ونظامه السياسي"[1]

وإذا كانت الثورة الفرنسية التي استمدت شعاراتها من جوهر الفكر الرواقي ونادت بالأخوة والمساواة والعدالة، فقد كان نابليون يجسد على أراضي مستعمراته نقيض ما يرفعه من شعارات اذ " توضحت طموحات نابليون بعد أن نصب نفسه إمبراطورا مدى الحياة على فرنسا في عام 1802م، وبدأ حملته التوسعية للسيطرة على أوربا والعالم بحجة نشر مبادئ الثورة الفرنسية، وخاض من أجل ذلك العديد من الحروب التي انتهت بخسارته وأسره ونفيه إلى جزيرة (سانت هيلانه) حيث توفي في عام 1821م[2].

إن محاولة تصوير هذه الأفكار من قبل أصحابها على أنها عالمية، لهو في الواقع غير ذلك، فمجمل الأفكار والمشاريع التي ظهرت كانت بمجملها بعيدة كل البعد عن العالمية، وكانت نتاجا للجغرافيا والتاريخ الذين انطلقتا منه.[3]، ثم جاءت بعدها محاولة كرد فعل انتقامي لما حل ولحق بألمانيا من ظلم من طرف امتدادها الجغرافي والتاريخي الأوروبي، ورغم ما أحرزته هذه المحاولة من نجاحات " فقد باءت في النهاية محاولات هتلر للسيطرة على مقدرات أوربا، ومن خلالها على العالم بالفشل، أمام التحالف العالمي حيث انتهى به الأمر في الأخير عام 1945 إلى الهزيمة وتقسيم ألمانيا إلى دولتين[4]، كانت عقيدة النازيين آنذاك في حروبهم لتركيع العالم هي نظرية التفوق العرقي للدم الجرماني، حرضت على ذلك العقوبات التي فرضت على ألمانيا من طرف أخواتها لأبوة التاريخ والجغرافية الأوربية، وجميع تلك الأسباب والمبررات لا تصلح لتأسيس شيء مشترك ومفهوم موحد للحياة.

إن السيطرة على المقدرات العالمية من قبل طرف واحد هي حالة غير قابلة للاستمرار، وتبدو نهايتها حتمية، فهذه هي قواعد الصراع الدولي[5]، لأن المتتبع لعلاقة الغرب بمشاريعه وما يطرحه لا يجد كبير عناء في كشف التعارض بين قيم المشروع نظريا، وممارسات هذه الدول لأنها " لم تنتج نظاما دوليا إلا وبدأت هي نفسها في الاتجاه الذي سيلغيه مجددا، وهذا ما كان، حيث كانت

[1] **زيغنيو بريجنسكي**/ رقعة الشطرنج الكبرى" الأولية الأمريكية ومتطلباتها الجيوستراتيجية " (عمان، الدار الأهلية للنشر، 2007) ص 39.

[2] **صدام مرير الجميلي**/ الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد، ص 198.

[3] **د/ خليل حسن**/ النظام الدولي، المفاهيم والأسس،الثوابت والمتغيرات، ص 11.

[4] **صدام مرير الجميلي**/ الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد، ص199.

[5] **صدام مرير الجميلي**/ الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد، ص 200.

ظروف وخصومات الحرب العالمية الأولى تتحضر بوتيرة متسارعة، وهكذا لم يأت منتصف العقد الثاني من (ق 20) إلا وكانت الحرب قد اشتعلت لتغير مفاهيم وقيم وأنظمة بنتائجها[1].

بمعنى أن مفهوم أحادية القطب بعيد المنال واقعيا، وان روج له اعلاميا لأننا " نلاحظ أن هيكل النظام الدولي بعد الحرب الباردة لا يمكن وصفه بنظام القطب الواحد، إنه هيكل يتسم بتعدد القوى، ويرتكز على نمط توزيع عناصر القوة والقدرة على التأثير في الوحدات الدولية الكبرى[2].

2. الطرح الجديد للفكرة المتجددة

كان لا بد أن يكون هناك تغير ما يخدم الفكرة مع الحفاظ على جوهرها، ويتخلى عن تلك الوسائل القديمة –لأنها أصبحت لا تتلاءم مع ما وصلت إليه المدنية، " ولأن الولايات المتحدة كانت الطرف الذي ظل بعافيته من بين كل الأطراف المتحاربة فقد وافقتها الظروف لكي تكون الطرف الأقوى؛ لأنه بجانب قوتها التي ظلت تحتفظ بها، كانت الطرف الأكثر تغيرا والأغنى والأكثر نتاجا في مصانع الحرب والسلم على السواء، وعلى هذا الأساس، امتلكت أمريكا حق رعاية هذا المشروع وتوجيهه[3] حيث حددت أطره ومفاهيمه وأهدافه، وأستعملت "الآخر" كأداة طيعة للوصول بهذا المشروع إلى منتهاه.

لقد رصدت الولايات المتحدة من الطاقات المادية والمعرفية كما هائلا لتحقيق الهيمنة على العالم من خلال هذا الطرح، بل راحت تعالج المسألة من جذورها حيث عملت على "التبني القسري" للقيم والأحاسيس الإنسانية العالمية، وفوضت نفسها – دون وكالة –راعية لكل الشعارات الإنسانية والقيم والمبادئ، مستولية بعد ذلك على تفسيرها وتشكيلها حسب رغباتها، واصمة الآخر بأبشع النعوت التي تبرر تعسفها، واتضح ذلك في الربط الفج بين ضرورة أمن (و.م.أ) والأمن الحضاري العالمي، الأمر الذي يستدعي قيادتها للعالم، وهذا ما لخصه الخطاب السياسي من خلال مجلس أمنها القومي 1968م، حيث أعلنت : "إن الصراع بين قوى النور وقوى الظلام لا يهدد دولتنا (و.م.أ) فقط، لكن يهدد أيضا الحضارة ذاتها، والهجمة على

[1] **د/ خليل حسن**/ النظام الدولي، المفاهيم والأسس،الثوابت والمتغيرات، ص 15.

[2] **صدام مرير الجميلي**/ الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد، ص205.

[3] **أ د/عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب**/ مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته السياسية والاقتصادية والتربوية (مصر، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، 2010) ص 23.

مؤسسات العالم الحر أصبحت عالمية، وتفرض علينا- باعتراضها لمصالحنا الخاصة- مسؤولية ممارسة القيادة العالمية"[1].

ولأن الولايات المتحدة –العالم الجديد- لا تمتلك ذلك الزخم العريق في تكوين حضارة أو إمبراطورية كما كان الحال بالنسبة للقارة العجوز أو الشرق عموما، لذلك عملت على تجاوز هذا الإخفاق أمام "الآخر"، من خلال دراسات وبحوث طوعتها لتجاوز هذا النقص المخل، ولأنها رمز الخير، تجسد الشر في إمبراطوريتين تتوسطها إمبراطورية الخير وفق الذوق الأمريكي (طبعا إسرائيل). كما أنها لا تقوى على إثبات الذات الثقافية والاديولوجية إلا من خلال وجود طرف – متخلف وغير متحضر-يؤدي دور المرآة ليعكس تقدمها وعلو كعبها في شتى المجالات "بدأت الولايات المتحدة تبحث عن تنصيبه ليقوم بدور إمبراطورية الشر الثانية، فكان العالم الإسلامي، بل الإسلام نفسه، خاصة أنه يفتقد لوجود حقوق الإنسان حسب رؤيتها، مما يبرر لها الحق في التدخل الإنساني لحماية حقوق المظلومين[2]

والإسلام تاريخا وجغرافيا، هو بالنسبة (للولايات.م.أ) ذاك الشرق الأوسط بحضارته وتراكماته، الذي حاز استقطابا روحيا عبر العصور.

" أنه الشرق الأكثر قربا والأكثر ألفة، ومع أنه لم يتم فهمه بالقدر الكافي، فقد ساهم أكثر من أي منطقة في العالم، في تغذية هذا المقابل الذي من خلاله عرف الغرب نفسه لمرات عدة، وإن تم هذا التعارف بالذات عن طريق الاجتياز على الماضي أو التقابل مع المستقبل[3] فان ثبوت الشرق على الاستقطاب يقلل من نكهة الولايات المتحدة في قيادتها للعالم، بل يطعن في هذا المفهوم أصلا، وبما أنه شرق الوحي وبوصلة حضارة الروح، ووجهة عقائد إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد – عليهم السلام-، فإن الشر يغلب على كمال اسمه من حيث الرسم والحقيقة، وهو ما يوحي بتعارض بينه وبين الغرب.

لم يكتف الشرق بهذا السبق حتى أصبح يستحق أن ترد إليه أفضال ما وصل إليه الغرب، بل أبى إلا أن يحدد ملامح شرقيته بالوسطية المتوسطية " فقد خدم الشرق – وتحديدا الشرق المتوسطي-

[1] **أ د/عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب**/ مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته السياسية والاقتصادية والتربوية ، ص 24.

[2] المصدر السابق، ص 26.

[3] **تيبري هنتش**/ الشرق الخيالي ورؤية الآخر، صورة الشرق في المخيال الغربي،الرؤية السياسية الغربية للشرق الأوسط، ترجمة د/ مي عبد الكريم محمود (دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، ط 1 ، 2006) ص 115.

الوعي الغربي، بأن قدم له أحد مراجعه، إنه مرجع متغير في لونه وشكله، ومتناقض في نعوته، ومتغير وفق الظروف، بيد أنه ثابت في وظيفته الاستقطابية".[1]

ومع أن "خارطة العالم المحرفة التي رسمها (جيراردوس مركاتور) عام 1569م وسعت الغرب على حساب الشرق، والشمال على حساب الجنوب، كان جيراردوس مركاتور عالما يطبق أساليب رياضية جديدة لعلم رسم الخرائط Cartography، ولكن خارطة تبدو أنها وضعت الغرب في (محرق) مركز العالم لم تكن بالتأكيد خارجة عن المألوف في عصر التوسع الأوربي" [2] ، فان ذلك لم يغير من حقيقة الاستقطاب ومن محورية الشرق، فلم يزد التوسع الجغرافي الغربي إلا تنوعا استقطابيا في رصيد الشرق.

"وعبر- بكسر العين – التاريخ مثل الألوان التي تخرج عبر بلورة منشورية تتغير بتحريك البلورة كان الغرب: خرافيا تاريخيا، متخيلا تمدينيا، متدينا عاطفيا، علمانيا وامبرياليا سياسيا، وكانت أوربا البذرة المحلية الغربية التي طلعت منها فروع الغرب في الكرة الأرضية"[3].

3. بداية تكون الشرق في الوعي الغربي:

"إن الرؤية الأوربية التمركزية للتاريخ التي تعود بهذا التعارض الثقافي أو (الحضاري) إلى عصر الحروب الصليبية، بل وحتى إلى العهد الإغريقي القديم، هي إسقاط مغالط لثنائية ظهرت بعد هذا التاريخ بوقت طويل ولم يظهر هذا التعارض قبل العصر الذي أصطلح على تسميته بالعصر الوسيط"[4].

إن محاولة تأصيل شرخ معرفي وحضاري تاريخيا بين الشرق الأوسط والغرب "وبغض النظر عن جميع العوائق الموروثة، أدى الخيلاء الأوربي الوسواسي (في أنهم أكثر تفوقا من الأمم الأخرى) إلى بحث مضن عن المزيد من المعارف حول الأمم الشرقية، كما قاد ذلك من جهة أخرى إلى

---

[1] **تيري هنتش**/ الشرق الخيالي ورؤية الآخر، صورة الشرق في المخيال الغربي،الرؤية السياسية الغربية للشرق الأوسط ، ص 115.

[2] **د/ جيرمي سولت**/ تفشيت الشرق الأوسط، تاريخ الاضطرابات التي يثيرها الغرب في العالم العربي، ترجمة د/ نبيل صبحي الطويل(دمشق، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 2011) ص 24.

[3] المصدر السابق، ص 23.

[4] **تيري هنتشة**، / الشرق الخيالي ورؤية الآخر، صورة الشرق في المخيال الغربي،الرؤية السياسية الغربية للشرق الأوسط ص116

بحث مثابر عن المصادر الثقافية والتراثية الأصيلة، وإلى الحاجة لأسلوب جديد لتشكيل أفكار أوربا عن العرب والإسلام"[1].

التعارض (المفتعل) ربطه الغرب تارة بالتخلف الذي ساد الشرق الأوسط، وتارة بسبب عقيدة الإسلام، وأخرى مردها إلى التفوق العرقي للفرد الأوربي، وعلى هذا الأساس كان من المهم أن تدرس جهودهم الفكرية تجاه العرب والمسلمين بشيء من الحذر، " لهذا السبب لا يمكن دراسة هذه التواريخ والكتابات حول العرب وحضارتهم في التاريخ دون وضعها إزاء خلفيتها الفكرية ومتطلباتها المعاصرة الهاجسية والقابعة في قعر العقل الأوربي الذي كان يسجل التاريخ العربي بطريقته الخاصة ليقدمه للقارئ الغربي كي يقبله بشيء من التعامي اللانقدي"[2].

لقد أفرز هذا السلوك المتعالي أفكارا تطورت فيما بعد وبمرور الزمن إلى قواعد ثابتة ومسلمات راسخة في دينامية العقل الأوربي، كما حصل مع أحدهم الذي توصل أن "الله أمسك علوم الإبحار عن الفرس والمغول والعباسيين والصينيين والتتار والترك، حتى تسطع شمس الحق والحقيقة من غربنا لتضيء الشرق"[3]. أو ما تصوره أحد علماء الاجتماع الفرنسي (آرثر دي جو بينو) حين يعتقد أن" الجنس البشري يمثل هرما، قاعدته العريضة هي الجنس الأسود، ثم يليه الملونون وفقا لدرجة لونهم، وأما قمة الهرم فهي الجنس النقي الأبيض، وهو الجدير بالسيادة وقيادة العالم"[4].

رغم دعوى العلمية والانتصار لمبدأ الطبيعة في كل أبحاثهم، إلا أنهم عطلوه هذه المرة، مع أن " طبيعة العلاقة البشرية تقتضي وجود الأمم والشعوب والقبائل، لا وجود لشعب واحد وأمة واحدة، وهذا الوجود خلق ليكون هناك تلاقح في الثقافة بشتى أنواعها الفلسفية والأدبية، وفي العلوم بشتى مناحيها الطبية والفلكية والرياضية وغيرها، وهناك تجاذب في المفاهيم والأفكار"[5].

4. الطبعة الأخيرة، الأطر والمفاهيم:

[1] **د/ محمد الدعمي**/ الاستشراق، الاستحابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، 2006) ص 54.

[2] المرجع السابق، ص 63.

[3] **د/ جيرمي سولت**/ تفشيت الشرق الأوسط، تاريخ الاضطرابات التي يثيرها الغرب في العالم العربي ص23-24

[4] **د/ حسن الباش**/ الشرق والغرب، مركزية الحضارة ونظرية الإقصاء، من المجابهة إلى الحوار أم من الحوار إلى المجابهة (دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2012).

[5] **د/ حسن الباش**/ الشرق والغرب، مركزية الحضارة ونظرية الإقصاء، من المجابهة إلى الحوار أم من الحوار إلى المجابهة ، ص 114.

في مطلع الستينات وبداية السبعينات، حصل تطوير خطير للفكرة الاستعمارية الأساسية (فرق تسد) فبعد إشعال حروب بين الأنظمة العربية التقدمية والتقليدية في الخمسينيات وما بعدها، وبعد أن استغلت الصراعات العدائية بين القوى الوطنية والقومية واليسارية وعمقت في تلك الفترة أيضا، جاء دور الفتن الطائفية"[1].

لقد اختار دعاة الطبعة الأخيرة لمشروعهم وسائل جديدة بعد أن ضعفت الاستجابة لدى المجتمعات للدوافع الكلاسيكية للحروب، وكان خيارهم مؤسس على دراسات تاريخية لعلاقة الأديان بعضها ببعض، وخلصوا إلى ضرورة اعتماد هذه العلاقة –وخاصة المراحل المتوتر منها– " كبديل فكري إيديولوجي الذي يملك جاذبية قوية توازي جاذبية الماركسية أو تتفوق عليها، وزجه في صراع الشيوعية بدلا من الفكر البورجوازي المهزوم والمأزوم، والبديل الذي يستطيع إلحاق الهزيمة بالشيوعية هو الأصولية الدينية في كل الأديان"[2].

"منذ أن قضى المسلمون الأوائل على دولة الفرس وأنشأوا دولتهم الأولى، انقسم العالم إلى شرق مسلم وغرب مسحي، والعداء بين الشرق والغرب عداء تقليدي قديم زادته حدة الانقسام الديني، والحروب الدينية تكون عادة أقسى الحروب، لاعتقاد كل فرق بأنه ينفذ إرادة الله على الأرض ويؤدي واجبا مقدسا"[3].

إلا أنه يجب أن نثبت أن دور الدين واستثماره في الحروب لا بد وأن نقرأه في سياقه الصحيح، فتوسع طرف على آخر، وأثر ذلك على الآخر تلك القراءة تمكننا من" أن نفرق تفرقة واضحة بين الدولة الإسلامية والعقيدة الإسلامية بالنسبة لموضوع العلاقات مع المسيحية، إذ أن الدولة الإسلامية قد توسعت على حساب الأقاليم المسيحية، وقد اتخذت الدولة من السياسات ما ساعد وجودها في الأقاليم على الاستقرار، أما بالنسبة للعقيدة الإسلامية فإن الوضع مختلف، فقد كانت هذه العقيدة تتوسع بأسلوب آخر بعيدا كل البعد عن العنف والإكراه [4].

إذا كانت الحروب الكلاسيكية من اختصاص الدوائر العسكرية من حيث (النظرية والتطبيق)، فإن الحروب الحديثة المعاصرة يأتي دور العسكري فيها في آخر المراحل، والدور القيادي فيها يوكل

---

[1] **محمد يوسفي عبد الله**/ رأس الأفعى بريجينسكي وشيطنة سياسات أمريكا في الشرق الأوسط، (دار الكتاب، القاهرة، ط 1، 2013) ص 51.

[2] المرجع السابق، ص 51.

[3] **وديع أبو زيدون**/ تاريخ الإمبراطورية العثمانية، من التأسيس إلى السقوط (بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ط 2، 2011)، ص 16.

[4] **أ د/ حامد غنيم أبو سعيد**/ الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، جبهة الشام وفلسطين ومصر،(القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، 2007)، ص 84/83.

إلى المفكرين والاستراتيجيين الذين تخصصوا في تراث وفكر وتاريخ تلك المناطق وأقدرهم على ذلك المستشرقون، الذين يوظفون الآلة العسكرية من أجل تغيير حقيقة تاريخية أو مجموعة قيم ومبادئ، أو خدمة هدف محدد.

كان الغزو العسكري هو ديدن الغرب ويرجع ذلك لقناعتهم أن أي أسلوب آخر لا يجدي " يوم كانت عقول المسلمين وأفكارهم ونفوسهم لا تسمح لعوامل التنصير أن تؤثر فيها، يوم كانت العواصم الإسلامية في العالم تعيش في خيرات مجد خلفه المد الإسلامي في العلم والحضارة والتقدم في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية المادية والنظرية، بالإضافة إلى ألوان المعارف الروحية الدينية والكمالات الأخلاقية" [1].

ولذلك نشطت مخالب الفكر الهدام، ومعاول الفساد الروحي، ودور الرصد والاستشراق، فكانت البعثات التبشيرية، واللجان الاستشراقية والفكرية تحط رحالها في قلب الدول العربية تحت مسميات مختلفة، لتهيء للزحف العسكري حتى يصل أهدافه بأقل الخسائر وأيسر الطرق وأسرع الأوقات.

لقد وفر الغرب لبدلاء الجنرالات كل الوسائل الضرورية (المادية والمعنوية) من أجل القيام بمهامه على أحسن وجه، فقد أتاحوا لهم قيادة العالم بشكل أو بآخر حيث تحكموا في مفاصل المعرفة إذ تخصص المستشرقون في مجالات الأنشطة المعرفية والتوجيهية العليا منها: التعليم الجامعي، والمؤسسة العالمية لتوجيه التعليم والتثقيف، والوظائف الاستشارية العليا للدول الغربية، وتأليف وإصدار الكتب والموسوعات العلمية، وإصدار المجلات الثقافية، وعقد المؤتمرات، وإلقاء المحاضرات العلمية وعقد الندوات الدورية.

5. عولمة الاستشراق والهيمنة على مدارسه:

مع أن الاستشراق في بدايته كان نتيجة لانبهار المجتمعات الغربية بأخلاق وتطور الأمة الإسلامية مما أدى إلى " قناعة الكنيسة بأن تتولى رعاية كل الجهود الرامية إلى تعلم العربية وفهم الدين الإسلامي، وهي الجهود التي تطورت بعد ذلك لتكون حركة الاستشراق"[2] ،إلا أن هذا

[1] **عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني** / أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، التبشير، الاستشراق، الاستعمار(دمشق، دار القلم، ط11 ، 2013) ص 21.

[2] **أ د/ محمد فتح الله الزيادي**/ الاستشراق، أهدافه ووسائله (دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ، ط3، 2011) ص 25.

الانبهار لم يحافظ على جوهره وهو الاعتراف للآخر، بل تفاعل مع معطيات جديدة تختلف من حيث الوسائل، وتتفق من ناحية الهدف، وإنما نركز على حركة الاستشراق المعاصر(البريطاني والأمريكي) بالتحديد لما له من دور رائد في تجسيد الفكرة، وما أتيح له من إمكانات هائلة داخل الدول الغربية وأمريكا على الخصوص، التي لم يكن فيها سبق ، ولا ملامح استشراقية أمريكية المنشأ، وإنما كان عملية " تبني" للاستشراق الأوربي وخاصة الانجليزي منه بنكهة جديدة تحمل توجهات سياسية واديولوجية حول الشرق الأوسط تحديدا والعالم بصفة عامة.

بعد الحرب العالمية الثانية وما أفرزته من نتائج وما فرضته من وقائع على العالم ككل والشرق الأوسط بالخصوص، مر الاستشراق بمرحلة تنظيم و تأطير لم يسبق له أن مر بها، فقد كان في بداية نشأته عبارة عن جهود فردية أغلبها تبحث عن بعض الحقائق لغرض علمي ولكن ما فتئت هذه الجهود العفوية (كما عرفها د/ محمد فتح الله الزيادي) أن يفرض عليها التنظيم و التأطير من جهات مختلفة، لها مشاريع وأهداف إيديولوجية كانت الكنيسة واجهة لها فقط بما تقدمه هذه الأخيرة من عون مادي وغطاء روحي.

" تعتبر هذه المرحلة من أهم المراحل في تاريخ الاستشراق، ذلك أنها شهدت تحولا في مسيرة الاهتمام الغربي بالشرق، فبعد أن كان الاستشراق فيها في أحضان الكنيسة دفعا ودعما وتخطيطا، دخل الاستعمار الأوربي بديلا للكنيسة في رعاية جهود المستشرقين والتخطيط لها"[1]، أقتصر دور الكنيسة بعد ذلك على التبشير، ورعاية المسيحية داخل أوربا، وترك أمر الاستعمار والحروب إلى الدوائر الفكرية الاستشراقية التي أصبحت جزءا مهما من دوائر الاستشارات التاريخية الإستراتيجية في العلاقة مع "الآخر" وخاصة إذا كان شرقا أوسطيا.

وبما أن ظاهرة "التبني" في حق الاستشراق الأوروبي عموما أصبح واضحا فقد كان الزحف نحو العالم الجديد ظاهرة تستدعي الانتباه، مما أسفر على فقدان ملامح الاستشراق الأوروبي في شخوص من رحلوا من المستشرقين إلى العالم الجديد، ومنه حدث تحول مهم جدا في حقيقة الاستشراق عموما، لأن الأرض الجديدة تفتقر إلى العراقة في هذا التخصص، ولذلك عملت على استثمار الجهد الأوربي وتبنيه.

[1] المرجع السابق، ص 28.

" لم يلاحظ نشاطه الفعلي –الاستشراق الأمريكي- إلا في فترات قريبة جدا أو بشكل مثير في القرن العشرين، بحيث صارت أهم مراكز الاستشراق وأبرز أعلامه يتخذون من أمريكا مقرا، ومن جامعتها وإمكاناتها وسيلة للحركة والفاعلية"[1]. كما يجب أن نتذكر أنه في " القرن السادس عشر الميلادي ظهرت حركة الإصلاح الديني في أوربا وعادت أفكار قديمة للظهور، وظهرت فكرة البعث اليهودي للمسيحية وهم أتباع المسيحيين الذين آمنوا بالمسيح من بني إسرائيل، والذين ناصبوا "بولس الرسول وأتباعه العداء"[2] ومنه ظهر ما يعرف الآن بالمذهب البروتستانتي بزعامة أحد أكبر الكهنة في الغرب وهو "مارتن لوثر"[3]، هذا المذهب الذي توسع في الأرض الجديدة حيث لم يجد من يزاحمه على اكتساح فكر وعقائد غالبية سكان الأرض الجديدة، وساعده على ذلك أن معظم الوافدين من المفكرين والمستشرقين الأوربيين كانت لهم خلفية "لوثر" فتأسس المجتمع الأمريكي من بدايته على الطرح البروتستانتي الذي يعرف بتوجهاته العقائدية (المسيحية الصهيونية)[4] .

عاد العهد القديم بأسفاره التاريخية والتنبؤية إلى السيطرة على أفكار أتباع مارتن لوثر، وهم البروتستانت أو الأصوليون المسيحيون الذين يمثلون الأغلبية في المجتمع الأمريكي، والمذهب اللوثري المشكل من الذوق اليهودي (الجديد) والدعم المسيحي المتطرف يرتكز على التراث الشاذ في المذهبين، وحقيقته " إعادة تفسير النصوص الدينية بطريقة تحض بشكل مباشر على إبادة الآخر، وفي الغرب أدى هذا إلى تشكيل "ضمير ديني " يسمح بإبادة الشعوب على نحو كامل، ويمهد إلى حدوث المجزرة البشرية الهائلة والمتوقعة والمتمثلة في معركة " هرمجدون"[5]، من أجل هذه المعركة المزعومة التي سيكون وقودها "الآخر"[6] وهو بالطبع (الإسلام).

. ولأن الغرب لا يملك لغة الإقناع في حوارات القيم والمبادئ، " تبنى دعاة المشروع الإلغاء والعنف، ولأن هذا الأخير ثبتت جاذبيته في سلوكهم، لأنه يبدو طريقا مختصرا وسريعا لترجمة

---

[1] المرجع السابق، ص 101.

[2] **وديع أبو زيدون**، الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، ص 132.

3 (*) **مارتن لوثر** (1483م قائد حركة الإصلاح في ألمانيا وأوربا، صارع ضد البابا، رفض صكوك الغفران، والملك الحرفي، والشعب المختار/ مفهوما لآخر، ص 162/161.

4 (*) **المسيحية الصهيونية**: حركة نشأت في أمريكا الغرض منها تعضيد دولة إسرائيل، ذات طابع ديني، تبنتها عدة هيئات منها السفارة المسيحية/ المرجع السابق، ص160.

[5] (*) **هرمجدون** : معركة نووية يعتقد الانجليون المتهودون أنها ستقع في سهل "مجدو" بين القدس وعكا، يظهر المسيح (عليه السلام) فوقها مباشرة، وسيرفع إليه بالجسد المؤمنين به ليحكم العالم من القدس مدة ألف عام، تقوم بعدها القيامة / أسطورة هرمجدون، ص 128.

[6] **مجدي كامل**/ المسيحية الصهيونية، التطرف الاسلامي والسيناريو الكارثي(دمشق، دار الكتاب العربي، ط1، 2007) ص 15.

مشاعر الغضب والاستياء إلى إجراءات فورية وإلى معالجة المرء مشاكله بنفسه والنظر إلى العدو على أنه شرير يستحق ما يناله من عواقب".[1] وقد استحوذ دعاة هذا الطرح على ثقة الجهات الفاعلة في الغرب عموما (والولايات. م.أ) خصوصا، من إعلام ومنظمات دولية، وأنظمة دول بحكم تخصصاتهم الدقيقة، حيث استولدوا للغرب عدوا جديدا تحققت فيه جميع شروط العداء.

وهذا التيار الفكري الذي يرعاه ويؤطره ويتبناه من الناحية المعرفية داخل الولايات المتحدة وخارجها المستشرقان : " برنارد لويس وصموئيل هنتنجتون اللذان يعدان (الآخر) عدوا، اذ بعد سقوط الاتحاد السوفياتي أصبح يرى "الآخر" هو الإسلام، وظهر أنه لا مهرب عن الاصطدام بهذا الآخر (العدو)"[2]، وهذا التيار هو المقرب غربيا من صناع القرار.

هذا الطرح نابع من إحدى مدارس تفسير الكتاب المقدس في الفكر الغربي وهي "مدرسة التفسير التاريخي الروحي الملتزم بالنص" أي ما يقابل المذهب الظاهري في الفكر والفقه الإسلامي ، أو حرفية النص " إذ يؤمن أصحاب المدرسة الحرفية أنه لكي يأتي المسيح ثانية لا بد أن تقوم معركة تدعى "هرمجدون" بين إسرائيل من جانب، وجميع دول العالم من الجانب الآخر، وعندما تبدو هزيمة إسرائيل في الأفق يتدخل المسيح بالقوى الطبيعية (زلازل، براكين، سيول، إلخ...) وينتصر لإسرائيل"[3]، مع أن الحضارة الغربية تعتبر التجاوب مع النص الديني جريمة في حق مخرجات الديمقراطية والحرية الفردية وكل أوجه الحداثة، إلا أن هذه الجريمة يسقط فعل الجرم ووصفه، و تنتهي صلاحيته في حق نص الكتاب المقدس، "وهناك جماعة من المسيحيين يتبنون التفسير الحرفي للكتاب المقدس عن ملك المسيح حرفيا ألف عام في فلسطين، كما أن المحافظين الجدد الذين يريدون أن يهيمنوا على العالم ينادون بالتفسير نفسه "[4].

6. مفاهيم استشراقية مؤسسة للعولمة ودالة على العلاقة:

اعتمد منظور المشروع الكوني على زعزعت مفاهيم قيمية كانت سائدة تحظى بمكانة وثقة في أوساط المجتمعات الأوربية والشرق أوسطية، فقد عملوا على تشيئ المبادئ والقيم والجرأة على

---

[1] **الأب د / توماس ميشيل اليسوعي** / بناء ثقافة الحوار،ترجمة: ناصر محمد يحي ضميرية(دمشق، دار الفكر، ط1، 2010) ص 126.

[2] **د/ رقية العلواني، الأب د/ كريستيان فانسين**، تحرير: أ د، منى أبو الفضل، أ د، نادية محمود مصطفى/ مفهوم الآخر في اليهودية والمسيحية (دمشق، دار الفكر، ط1، 2008) ص 155.

[3] **د/ رقية العلواني، الأب د/ كريستيان فانسين**، مفهوم الآخر في اليهودية والمسيحية ، ص 170.

[4] المرجع السابق، ص 171.

العقائد والأعراف، بل بلغ بهم الأمر إلى التشكيك في المسلمات، وطرح أفكار خطيرة وجريئة لم يسبقهم أحد اليها، حتى يقضوا على كل الحواجز النفسية والأخلاقية، وحتى الوقائع التاريخية.

ولأن التاريخ هو وعاء أمين للأحداث، ولأن الغرب ومن ورائه أمريكا وإسرائيل يعيشان حالة صراع مع كل ما هو معرفي حضاري ديني، فإن دعاة هذا المشروع قد أجمعوا على الانتقام من هذا التاريخ، واتهم الأقدار التي حرمت أوربا بغربها الجديد أن تحوز وسام الشاهد على علو كعب الإنسانية في سلم القيم والمثل العليا والعقائد، وأخرتهما من الناحية التراتبية، ولذلك وجب الطعن فيه(التاريخ) وفي كل ما أفرزته فصوله منذ احتكاكه بحركية الإنسان (المادية والعقائدية والفكرية)، وتسفيه كل الأحداث والأشخاص الذين تلون التاريخ بمادتهم المعرفية وآثارهم الروحية وانجازاتهم التاريخية، ولهذه الأسباب وجب شله والإسراع بنهايته، وحرمانه من كل صلاحياته وقداسته، وإدخاله بيت الطاعة حتى يعرف ما سيجل. أحداثها ومآثرها.

انه التاريخ الذي سجل للإسلام والعروبة وللعقل العربي ولشعوب آسيا حضارات وشهادات تقدير فأنتجت "عالما عربيا يتسم بقدر من الترابط وبشكل من أشكال الوحدة يعني أنه يشكل ثقلا استراتيجيا واقتصاديا وعسكريا، ويشكل عائقا أمام الأطماع الاستعمارية الغربية"[1].

ومنه التزم المستشرقون – الذين تتناسب أذواق معظمهم مع هذا الطرح من خلال دراساتهم اللاهوتية والتاريخية – أن يجعلوا لهذا المتمرد "التاريخ" نهاية حسب الطلب، لا على ما تقتضيه السنن التاريخية، ولذلك ركزوا على نصيحة حولوها الى مسلمة لا تناقش مفادها: " أنه ليس للبشرية سوى طريق واحد للتقدم هو ذاته الطريق الرأسمالي، وبالتالي فإن البحث عن طريق آخر هو مضيعة للوقت، وتبديد للطاقات والثروات، هذه الرؤية التي عبر عنها "فوكوياما" تحمل بعدا عنصريا، إنها تعني أن أرقى ما وصلت إليه البشرية هو التجربة الرأسمالية الغربية، وبخاصة النموذج الأمريكي"[2].

الغرب في هذا الطرح — وهو الذي يسمي الشرق بالعالم القديم– أنه يعمل على " تسليب " البعد الزمني للشرق الموغل في القدم، وما يكتنزه من عبق وشرف السبق، الذي يتباهون به في عالم الماديات مقارنة بتأخر العالم العربي والإسلامي في مجاله، بل لم يكتف وراح يأخذ بالأحوط في

[1] **د/ عبد الغفار عفيفي الدويك**، اسرائيل والشرق الأوسط (القاهرة، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، ط1، 2011)، ص 208

[2] **د/ عبد الغفار عفيفي الدويك**، إسرائيل والشرق الأوسط ص 212.

نصائحه وتهديداته، لأنه ملك زمام التاريخ ومصيره وحدد صفحته الأخيرة، وأعتبر أن كل ما محاولة لأحداث صفحة جديدة هو عدوان على حق أوربا، وانقلاب على المركزية الغربية يجيز لهم الهجوم والتعسف في حق الآخر، إذ أنه القوة الكونية القادرة على قيادة العالم والتفكير عنه – كما يخيل إليهم،– وكل محاولة من الآخر للبحث عن بديل يجب أن تفسر تبديدا لثروات البشرية، ومن حق القوة القائدة ردعه وإجباره بالتزام الطريق المقرر.

لقد عمل الغرب على تسليب كل ما هو ايجابي في الآخر، بحيث يرد الغرب شرور الآخر وعيوبه إلى كل ما هو " قيمي" فيه، ويؤسس ايجابيته وبراءته بمقدار تخليه عن مبادئه وقيمه وثقافته، " إن المسلمين أوغاد بطبعهم، يكرهون الآخر، ويريدون إفناء الغرب واليهود، انتقاما لعجزهم وتخلفهم، وان الدين الإسلامي جعل الجهاد فريضة على كل مسلم، وأن الجهاد يعني القضاء على غير المسلمين لأنهم كفار"[1].

تأهيل وتدريب العقل العربي على تقبل كل ما هو غربي بدون مناقشة من أهم أولويات المفكرين الغربيين، ولذلك دأبوا حتى على تبرير الاستبداد في المفهوم والفكر الغربي " إن كل ما يحدث للمسلمين على أنهم دمويون بطبيعة تكوينهم العقدي فكل عدوان منهم على غيرهم بحسب رأي " لويس" حرب مقدسة Holly War "[2].

هذا الأكتشاف لتركيبة المجتمع الأسلامي، والوقوف على فاعلية الأصولية الدينية في جميع الأديان، ومدى قابلية واستراتيجية الدور الطائفي والمذهبي الذي يعيش حالة ركود وخمول منذ قرون، لا يقدر على استكشافه (الدور) الا الدارسون لتاريخ تلك الطوائف والمذاهب، وهم المستشرقون في التاريخ وعلم الاجتماع من أمثال برنارد لويس الذي كانت له دراسات أكاديمية معمقة عن أكثر الطوائف غرابة وجدلا في التاريخ الاسلامي وهي " طائفة الاسماعيلية " الشيعية، وما أسسه على تلك الدراسة من أحكام في حق كل المذاهب الأخرى بل والاسلام، ومانلمسه اليوم من موقف دعاة العولمة من الاسلام الشيعي في الحالتين : العراقية والسورية، كما تخصص في تاريخ

[1] **أ د/ برنارد لويس**/ الإسلام وأزمة العصر، حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس، تقديم: رؤوف عباس، تعريب: أحمد هيكل(مكتبة الأسرة، 2004)، ص 15.

[2] **أ د/ عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب**/ مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته السياسية والاقتصادية والتربوية (مصر، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 2010) ص29.

الامبراطورية العثمانية، حيث أصبح مرجعا لأوربا وأمريكا في كل ما تعلق بالمنطقة، مما جعله يتبوأ مكانة جعلت من استشاراته مشاريع قرارات وقوانين في البيت الأبيض وأروقة المنظمات العالمية.

كما يصر دعاة العولمة على فرض مشروعهم اعتمادا على ما أصدرته مراكز الاستشراق من أحكام مؤدلجة تتعلق بعقائد وفكر وثقافة المسلمين ، أو تبريرهم لفرض نظامهم الرأسمالي بعد سقوط الشيوعية، وهو ملخص ما توصل اليه المستشرق " فرانسيس فوكو ياما " القائل بنهاية التاريخ.

عمل المستشرق" فرانسيس فوكوياما " بتفان على إقناع الآخر بأن تطور الفكر البشري وصل إلى نهايته وأن أمريكا تولت "وضع السياج المعرفي الذي يجعل النظام الرأسمالي مقبولا من سائر المواطنين في الداخل أولا، قبل تعليبه وتغليفه بصفات يقال إنها (إنسانية) ثم تصديره للخارج"[1] حيث يعمد فوكوياما إلى أسلوب التخويف ويحذر من رفض الديمقراطية لأنها أرقى ما وصل إليه الفكر البشري: " إن الديمقراطية الحرة تشكل نقطة النهاية في التطور الاديولوجي للإنسانية، والصورة النهائية لنظام الحكم البشري وبالتالي فهي تمثل نهاية التاريخ [2]" ومع أن فوكوياما، يعتبر الإسلام خاصة، والمجتمعات المتدينة عموما هي أخطر تهديد للديمقراطية، مع ذلك فإنه يعمل على فرضها" الديمقراطية الرأسمالية " بالقوة داخل هذه المجتمعات، بل يعطي لها الشرعية في الدفاع عن نفسها حتى داخل حصون ومعاقل المجتمعات المتدينة وهو ما يتنافى مع السلوك الذي تأمله الديمقراطية الحرة .

" سيكون للديمقراطية مصلحة في حماية نفسها من الأخطار الخارجية، وفي نشر الديمقراطية في الدول التي لا توجد فيها نظم ديمقراطية وستطبق الوسائل الواقعية في تعاملها مع هذه الدول، وسيظل استخدام القوة الحكم النهائي في العلاقات بينها"[3] فالواقعية في نظر(فوكو ياما) أن يعتنق الأفراد والمجتمعات الأفكار والمناهج بقوة الحديد والنار، لا بقوة المنطق والإقناع، وهو تصريح سياسي من شخصية علمية متخصصة في العلاقة مع الآخر، يبني عليه الساسة مواقف تحريضية، اقتصادية وسياسية وعسكرية، وهو نموذج للعلاقة القائمة بين العولمة والاستشراق.

---

[1] **أ د/ فرانسيس فوكوهاما**/ نهاية التاريخ والرجل الأخير، ترجمة: د/ حسن أحمد أمين (القاهرة ، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط 1993) ص 31.

[2] المرجع السابق ص 31.

[3] المرجع السابق ص 244.

وبما أن " أساس اختلاف الحضارات هو التاريخ واللغة والتقاليد، ولكن أهم العناصر أثرا هو "الدين" ، ولذا فالصراع بين الحضارات سيأخذ شكل صراع ديني على حسب هنتجتون[1] " مع أن الاختلاف المقروء هنا ليس بمعنى "التضاد" الاقصائي، بل بمعنى التميز والخصوصية، الا أن الغرب اعتمد وفعل المعنى الأول، الأمر الذي حرض وعجل بضرورة التحرك نحو "الآخر" برؤية عدوانية.

" إعلان فوكوياما نهاية التاريخ، هو اعلان نهاية الانسان وانتصار الطبيعة المادة أي الموضوع (اللانساني) على الذات الانسانية، ومعناه تحول العالم بأسره إلى كيان خاضع للقوانين الواحدية المادية (التي تجسدها الحضارة الغربية) والتي لا تفرق بين الانسان والأشياء والحيوان، والتي تحول العالم بأسره إلى مادة استعمالية"[2].

فهناك مشروع واضح متكامل يتقاسمه هذان المستشرقان بدعم فكري دقيق من برنارد لويس الذي يقدم لهما الرؤية التاريخية والتبرير العلمي – حسب رأيهم – لقبول طروحاتهم، فقد أعاد(فوكو ياما) تذكيرهم بالرؤية الماركسية والهيجلية التي مؤداها " أن التطور المطرد للمجتمعات البشرية لا يسير إلى ما لانهاية، وإنما هو محكوم بتوصل الإنسان إلى شكل محدد لمجتمعه يرضي احتياجاته الأساسية، وعندما يتوصل إليها يتوقف التطور أو يتوقف التاريخ[3].

صور لويس الحالة الراهنة – آنذاك- بقوله: " نحن نواجه حالا وحركة تفوق مستوى القضايا والسياسات والحكومة التي تنتجها، وهذا لا يختلف عن صدام الحضارات، وربما كان رد الفعل غير منطقي، ولكنه بالتأكيد الفعل التاريخي ضد تراثنا المسيحي – اليهودي ووجودنا الدنيوي"[4].

وليس غريبا أن يهتم برنارد لويس بمستوى بعض الحالات السياسية وحركيتها، ويعترف في سياق تشكيكي بوحشية (ولا منطقية) الرد، ولكن الغريب أن يتعذر بتاريخية السلوك، وواجب الانتصار للقيم الروحية والوجودية، الفعل الذي ينكره في سلوك المسلمين خصوصا والآخر عموما.

الحالة والحركة اللتان تنبه إليهما (لويس) في الأصل أنهما نتيجة مجتمعية طبيعية، ولكن ما يقلق لويس كونهما خارجتان عن نطاق تحكم وسيطرة الحكومات، التي يدعي أنها كانت سببا في

---

[1] **د/ عبد الوهاب المسيري**/ العلمانية والحداثة والعولمة، تحرير: سوزان حرفي (دمشق، دار الفكر، ، ط1، 2013) ص 182.

[2] **د/ عبد الوهاب المسيري**/ العلمانية والحداثة والعولمة ، ص 181.

[3] أ د/ فرانسيس فوكوهاما/ **نهاية التاريخ والرجل الأخير** ص 16

[4] **أ د/ برنارد لويس** / جذور الغضب الإسلامي (مجلة الاطلنطي، العدد 266، أيلول 1990 ص 60.

وجودهما بأخطائها، أو لعدم التقيد بدفتر الشروط الحاصل بين هذه الحكومات والغرب، لأن هذه الحكومات في الواقع صنيعة الغرب، وهو نموذج إضافي لتلك العلاقة بين المستشرق والسياسي الهادف إلى (حكومة العالم الخفية).

كل هذه المعطيات – وغيرها- تؤكد وبوضوح مدى العلاقة الإستراتيجية المخبرية المبيتة التي تتجاوز الحقائق التاريخية، وتتعسف في حق الآخر عقيدة وفكرا وتاريخا، بين دعاة العولمة وأكثر العاملين في الحقل الاستشراقي، لأن " الحلول التي تعرض علينا في المجال السياسي، مثل: البعثية، والبربرية، والإفريقية، والشيوعية، تلك الشيوعية التي رعاها الاستعمار وسهر على نباتها في مدفآته، وما ذلك الأدب في المدح والتمجيد لماضينا إلا وسائل إلفات في المجال السياسي أو في المجال الفكري"[1].

الخاتمة:

كانت تجربة اعتماد الدراسات الإستشراقية كإطار للصراع الإجباري المأمول غربيا بين الحضارات لغرض العولمة واحدة من أهم الخيارات التي راهن عليها الغرب، إذ ساهمت جهود المستشرقين بشكل فعّال في تأجيج الصراع وتسريعه بين الشَرق والغرب جغرافيا، وبين المسيحيَة الصهيونية والإسلام كوجود روحي وفكري منذ التَحالف الماكر بين الشعارات المسيحية ودعاة " حكومة العالم "، التي يراد لها أن تكون " ثمرة إجبارية لهذا الصراع الكوني" الذي أباح كل محضور، ودنَس كل مقدَس، وسفَه الفضيلة، وأعلى من شأن الرذيلة تحت سطوة المادية الرَعناء.

لقد إمْتلك الإستشراق هذه الفاعلية باعتباره حقلا معرفيًا صرفا، حيث أستجمع قوته في زمن مبكر وفي غفلة مصحوبة بحسن الظن من مفكري وعلماء الضفة الشرقيَة، الذين كانوا يحترمون الفكر ويقدسون العلم انطلاقا من توجيهات عقائدية وأخلاقية سامية، إلَا أنَ هذا النوع من العلوم- وخاصة المعاصر منه – أظهر طرحا أخر بعيدا كل البعد عن ما قدَم به نفسه للأخر، وأثبت في كثير من مواقف الساسة وقراراتهم أنه يمثل الناصح الأمين، والمستشار الخبير لدعاة الهيمنة والعولمة، وأنه بتوجيه من دوائر إيديولوجية ، يلتزم برفع النتائج المخبرية المتعلقة بالحالة العربية والإسلامية إلى أصحاب القرار السياسي والاقتصادي في الدوائر الغربية، وحتى المنظمات العالمية المختلفة، بكل حذر ودقَة وأمانة.

[1] أ / **ملك بن نبي**/ إنتاج المستشرقين (بيروت، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، 1969)، ص 18.

من هذا المنطلق، وجب التفكير في إعادة قراءة هذا الحقل المعرفي المهم، لبناء رؤية جديدة وصورة حقيقية تأخذ بعين الاعتبار ما أتيح له من إمكانات مادية وتسهيلات لوجستية، حتى تكون أحكامنا بخصوصه أحكاما علمية واقعية، لا أن نكتفي بالرؤية الكلاسيكية التي تعني استشراقا في مهده الأول، ومنه قد تكون التوصيات التالية خطوة في إعادة قراءة فاعلة لحقيقة هذا التخصص وحقيقة علاقته بمفهوم مشروع العولمة:

1- إعادة تنشيط الجامعات والمعاهد وإشراكها وتحسيسها بخطورة الأمر وأهميته، لاعادة صياغة مفهوم " العولمة " لدى الطلاب ورده الى جذوره التاريخية بثلاثة قرون قبل الميلاد، لا كما تطرحه وسائل التواصل الاجتماعي على أنه اكتشاف جديد يمن به الغرب، وحتمية تاريخية لا مناص منها.

2- تقديم كل الدعم والتشجيع لهذا التخصص (الاستشراق)، والتركيز على مواطن دعمه للعولمة، وما يمثله هذا الدور من خيانة علمية في حق الآخر.

3- إقامة مراكز رصد لكل إنتاج غربي في هذا التخصص ومتابعته، وتمكين المتخصصين منه والباحثين في مجاله، وتقديم كل التسهيلات للباحثين من أبناء الأمة من الحضور للملتقيات والندوات ذات الصلة.

4- إنشاء مراكز تخصصية تهتم بأمرين: **الأول**، تطرح الرؤية الصحيحة والحقيقية لكل ما يبحث عنه " الأخر" طرحا علميا مؤصلا، مدعما بالحجج والوثائق التي لا تقبل الطعن في صحتها، **ومن جهة** تقوم بكشف مخططات الغربيين، فتفضح زيف منهجهم وبعدهم عن العلمية والحيادية، وتبرز الخلفيات الاديولوجية التي ينطلقون منها في مناقشة ودراسة الشأن العربي الإسلامي.

5- محاولة كشف العلاقات القائمة بين بعض المستشرقين و الأنظمة المؤدلجة الحاكمة في الغرب، وتتبع أسباب تلك العلاقة، وما يتبع ذلك من مصادر التمويل والتوجيه والدعم الإعلامي، خدمة للفكرة التي أقيمت من أجلها تلك العلاقة.

قد يعطي الاهتمام بهذه النقاط وغيرها مما طرح في هذا الشأن، خطوة فاعلة وجادة في تعاملنا مع الاستشراق، وتعاطينا مع مفهوم العولمة وذلك يحتاج إلى إرادة سياسية ورقابة اجتماعية مخلصة وواعية، يؤازرها عمل وصبر وجهد فكري دؤب، لا يقل عن جهد وصبر وإصرار الطرف الأخر في شيء.

المراجع

1- **د/ خليل حسن، النظام الدولي المفاهيم والأسس الثوابت والمتغيرات** (بيروت، منشورات الحلبي الحقوقية، ط3، 2013).

2- **صدام مرير الجميلي، الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد** (لبنان، دار المنهل، ط1، 2009).

3- **أ د/ عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب، مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته السياسية والاقتصادية والتربوية** (مصر، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 2010).

4- **تيري هنتش ، الشرق الخيالي ورؤية الآخر، صورة الشرق في المخيال الغربي، الرؤية السياسية الغربية للشرق الأوسط**، ترجمة : د/ مي عبد الكريم محمود(دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، ط1، 2006).

5- **د/ جيرمي سولت، تفتيت الشرق الأوسط، تاريخ الاضطرابات التي يثيرها الغرب في الوطن العربي**، ترجمة : د/ نبيل صبحي الطويل (دمشق، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2011).

6- **د/ محمد الدغمي، الاستشراق،الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي** (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2006).

7- **د/ حسن الباش، الشرق والغرب، مركزية الحضارة ونظرية الإقصاء، من المجابهة إلى الحوار أم من الحوار إلى المجابهة** (دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2012).

8- **محمد يوسف عبد الله، رأس الأفعى بريجنسكي وشيطنة سياسات أمريكا في الشرق الأوسط** (القاهرة، دار الكتاب العربي، ط1، 2013).

9- **وديع أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط** (بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ط2، 2011)

10- **أ د/ حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الاسلامية في مواجهة مخططات الصليبية، جبهة الشام وفلسطين ومصر**(القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 2007).

11- **عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، التبشير الاستشراق، الاستعمار**(دمشق، دار القلم، ط11، 2013).

12- **أ د/ محمد فتح الله الزيادي، الاستشراق، أهدافه ووسائله** (دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 2011).

13- **د/ عبد الغفار عفيفي الدويك، إسرائيل والشرق الأوسط** (القاهرة، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، ط1، 2011).

14- **أ د/ برنارد لويس، الإسلام وأزمة العصر، حرب مقدسة وإرهاب غير المقدس**/ تعريب:أحمد هيكل، تقديم : د/ رؤوف عباس (مكتبة الأسرة، ط 2004).

15- **أ د/ برنارد لويس ، جذور الغضب الإسلامي** (مجلة الاطلنطي، العدد 266، أيلول 1990.

16-**أ د/ فرانسيس فوكوهاما، نهاية التاريخ والرجل الأخير**، ترجمة: د/ حسن أحمد أمين (القاهرة ، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط 1993).

17- **أد/ عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة،** تحرير: سوزان حرفي(دمشق، دار الفكر، ط1، 2013).

18-أ / **مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين** (بيروت، دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1969).

19- أ / **مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي،** ترجمة: عبد الصبور شاهين (دمشق، دار الفكر، ندوة مالك بن نبي، نسخة مصورة عن طبعة 1981).

20-أ/ **هشام آل قطيط ، أسطورة هرمجدون الصهيونية المسيحية** (دمشق، دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2004).

21- **د/ رقية العلواني وآخرون، مفهوم الآخر في اليهودية والمسيحية،** سلسلة التأصيل النظري للدراسات الحضارية (دمشق، دار الفكر، ط 2004).

22-أ **د/ زبيغنيو بريجنسكي، رقعة الشطرنج الكبرى" الأولوية الأمريكية ومتطلباتها الجيوستراتيجية** " (عمان، الدار الأهلية للنشر، 2007).